التحوّل العظيم

للطبيعة البشرية بميلاد الرب

رسالة بمناسبة عيد تجسد الرب يسوع

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٥

www.coptology.org

الأخوة والأخوات الأحباء.

١- سلامٌ في الرب الذي نصوم معه على قدر طاقتنا، وعلى قدر ما نملك من فرصٍ ننفضُ فيها تراب مشغوليات هذا العمر عن أرواحنا التي اختارها الله في ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح لكي يسكن فيها ويستريح.

الحمد لمن شاء أن يجعل عرش عظمته في قلب الإنسان، وأن تحمله الأُمُ والعذراءُ في أحشائها لكي يُولَد مثلنا طفلًا؛ حتى يُقدِّس أصل الجنس البشري محوِّلًا ميلادنا الجسداني إلى ميلادِ حياةٍ بميلاده من العذراء، حسبما شرح القديس كيرلس عمود الدين:

> "لقد جاء الابنُ وصار إنسانًا لكي يحوِّل طبيعتنا فيه هو، وابتدأ أولًا بالميلاد الذي جعله مقدَّسًا وعجيبًا، إذ جعله ميلادًا للحياة. فولِد هو أولًا من الروح القدس، وأنا أعني طبعًا جسده، لكي ننال نحن هذه النعمة، وتصل إلينا منه لكي نُولَد ليس من دمٍ، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله (يوحنا ١: ١٣). وبالروح القدس تُولَد نفوسُنا ميلادًا جديدًا روحيًّا، مشابهًا لميلاد ذاك الذي هو بالطبيعة وبالحق الابن، وبذلك ندعو الله أبًا، ويؤهِّلُنا هذا الميلاد الجديد أن نبقى في عدم انحلالٍ لأننا امتلكنا، ليس طبيعة آدم الأول الذي فيه انحللنا، بل طبيعة آدم الثاني. وحقًّا قال المسيح مرةً: "لا تدعو لكم أبًا على الأرض لأن أباكم واحدٌ وهو الذي في السموات" (متى ٢٣: ٩)، ففيه هو قد وُلِدنا ميلادًا جديدًا عندما نزل إلى حالتنا لكي يرفعها إلى كرامته الإلهية، ولذلك قال: "أنا صاعدٌ إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يوحنا ٢٠: ١٧)، والآب الذي في السماء هو أبوه بالطبيعة، ولكنه هو إلهنا نحن، والابن يدعوه كذلك، لأن الابن بالطبيعة وبالحق صار إنسانًا مثلنا. ويقول (الابن) عن الآب إنه إلهه حسب إخلائه لنفسه، ولكنه أعطانا أيضًا أباه السماوي كآبٍ لنا كما

هو مكتوب: "وأمَّا كل الذين قبلوه أعطاهم سلطانًا أن يصيروا أبناء الله، أي الذين يؤمنون باسمه" (يوحنا ١: ١٢)[١].

وهكذا أيها الأخوة يُعبِّر القديس كيرلس بطريرك كنيستنا المقدسة عن الإيمان الذي نرتِّلُه في كلماتٍ بسيطةٍ أخذها هو من القديس أثناسيوس الرسولي واستلمها كوديعةٍ لا تُقدَّر بثمنٍ، حيث نقول في سهولةٍ ووضوحٍ كامل: "هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له"، وهي العبارة التي وردت باللغة اليونانية في المقالة الرابعة ضد الأريوسيين الفقرة السابعة: "أخذ الذي لنا، وهو أعطانا الذي أخذه (من الآب)"، وهكذا أخذ ميلادنا الجسداني لكي يُعطي لنا الميلاد السماوي ويجعلنا بميلاده من والدة الإله نشترك في ميلاده لكي ننال كرامة السموات وقوة ومجد الأبدية.

وقد شرح القديس أثناسيوس نفسه هذه الحقيقة في المقالة الثالثة ضد الأريوسيين الفقرة الثالثة والثلاثين:

"وكما أن الجسد وُلِد من العذراء والدة الإله، قيل عنه هو إنه وُلِد، رغم أنه هو الذي يمنح كل ما هو وجود كيانه وأصله، ولكنه وُلِد لكي يحوِّل أصلنا إلى أُقنومه (ذاته) حتى لا نُصبح بعد ترابَ الأرض الذي يعود إلى التراب، وإنما قد نُسِجنا (مثل نسج الثوب أو القماش) مع الكلمة الذي من السموات وفيه نصعد إلى السموات".

ويقول أيضًا في رسالته ٥٩ المعروفة باسم الرسالة إلى "أبكتيتوس" في الفقرة التاسعة:

---

(١) راجع القديس كيرلس الكبير، "المسيح واحد" ترجمة وتعليق د. جورج حبيب بباوي، الطبعة الثانية ٢٠٢١، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٤٢. [المحرر]

"وعوضًا عن المائت صار خالدًا، ورغم أنه جسدٌ حيوانيٌّ، إلَّا أنه تحوَّل إلى جسدٍ روحانيّ. ورغم أنه من الأرض ومن التراب، إلَّا أنه دخل السموات وفُتحت له الأبواب العلوية".

وفي الرسالة ٦٠ إلى "أدلفوس" يقول في الفقرة الرابعة:

"تجسَّد لكي يؤهِّلنا فيه، ووُلِد من امرأةٍ، ووُلِد من عذراء لكي ما يحوِّل إلى أُقنومه (ذاته) جنسنا الساقط، حتى ما نُصبح شعبًا مقدسًا وشركاء الطبيعة الإلهية كما كتب بطرس المبارك (٢ بطرس ١: ٤)".

٢- لقد تعمدت أن أُترجِم كلمة "ذات" إلى "أُقنوم"، حتى نفهم أن أُقنوم الابن الكلمة الذي تجسَّد لأجلنا، هو الذي صار الرأس الجديد للجنس البشري الجديد الذي لا يُولَد من الأرض وحسب قوانين الميلاد الجسداني، بل يُولَد من الروح، ومن فوق من السماء بفضل اتحاد الناسوت في الابن المتجسد بلاهوته الواحد مع الآب في الجوهر.

لقد جاء الرب بالتحوّل العظيم لكي يصبح الإنسان حقًّا وفعلًا "صورة الله" بعودته من خلال ناسوت الابن الكلمة المتجسد إلى الله، هذه ليست عودةً فكريةً فقط، بل عودةٌ طبيعيةٌ، أي عودة الطبيعة العاصية الساقطة إلى الله بكل ما فيها؛ الجسد والروح والإرادة والفكر .. الخ.

نحن نعود بتجسُّد الابن إلى الله، ويصبح الله هو الآب الواحد لنا وللرب، لأنه الآب بالجوهر بسبب وحدة الأقانيم، والآب بالنعمة بسبب وحدتنا في المسيح يسوع ربنا بمن "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له".

٣- إنني أكتب لكم بمحبة الرب نفسه الذي استطاع بقدرته أن يعطي لنا حياةً سماويةً جديدةً، وأن يجعل "رباط المحبة" ليس "رباطًا فكريًا" حسب قدرة العقل

ونشاط المُخيلة، بل "حسب ملء الذي يملأ الكل" (أفسس ١: ٢٣)، لأن نعمة الله لا تعمل فينا حسب فهم الإنسان وقدرته العقلية، بل حسب محبة الله، وإلَّا لماذا قال الرسول بولس إن نعمة الله هي "بلا ندامة" (رو ١١: ٢٩)؟ فالرب لم يندم على ما وهبنا إياه من عطايا. إنني أُحذِّركم من المعلمين الكذبة الذين يتكلمون بأمورٍ شيطانيةٍ غريبةٍ محاولين خداع الضِّعاف من الذين لا يقبلون إلَّا شريعة العبيد. العبد لا يعمل إلَّا بالخوف من العقاب، ولا يتحرك إلَّا بالتهديد، ولا ينشط إلَّا إذا خاف الخسارة، وهو لا يفهم المحبة، بل يفهم الناموس والأمر والقهر والخضوع الأعمى. ولذلك، كلُّ مَن يحاول أن يُعيد روح اليهودية بتعليمٍ لا يأخذ روح الإنجيل، روح الذي "أخلى ذاته" وأخذ صورةَ عبدٍ، وأطاع وهو الابن لكي يزرع فينا طاعة الأبناء، فليعلم أن كل مَن يخالف روح المسيح، ليس له المسيح، حتى وإن كان كبير الكهنة.

المُعلِّم الكذاب هو كلُّ مَن يحوِّل مجد ربنا يسوع المسيح إلى وصايا الناموس، ويطمس المحبة. وكلُّ مَن يضع القيود والشروط على أيدي وأرجل وعقول الناس، بل وعلى قلوبهم هو ما زال يحيا في عهد "البرقع" الذي قال عنه الرسول بولس: "لأنه حتى اليوم ذلك البرقع نفسه عند قراءة العهد القديم باقٍ غير منكشف الذي يُبطَل في المسيح. لكن حتى اليوم حين يُقرأ موسى، البرقعُ موضوعٌ على قلبهم، ولكن حين يرجع إلى الرب يُرفع البرقع، وأمَّا الرب فهو الروح وحيث روح الرب هناك حرية" (٢ كورنثوس ٣: ١٤-١٧).

تحوُّلُنا من الأرض إلى السماء بتجسُّد الرب، واتحاد طبعنا الفاسد الميت بذاك الكلي القداسة هو تحوُّلٌ لا يحفظ قيود وممارسات العهد القديم الزائلة التي أُعطيت لكي تحفظ العبيد تحت خضوع العبودية، ولذلك يصرخ الرسول بولس في وجه الأبناء:

"فلا يحكم عليكم أحدٌ في أكلٍ أو شُربٍ"، وهي القيود التي تفصل بين الأطعمة النجسة والطاهرة حسب شريعة موسى، "أو من جهة عيد أو هلال"، لأن علاقتنا بالرب لا تنبع من الأوقات المقدسة وحساب الزمان والأيام، فليس لدينا يوم مقدس وآخر غير مقدس، لأن الربَّ جاء، وبذلك كفَّ عملُ الزمان بتجسُّد الابن: "ولما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة مولودًا تحت الناموس لكي يفتدي الذين تحت الناموس فننال التبني" (غلاطية ٤: ٤). وهكذا يقول الرسول: "من جهة عيد أو هلال أو سبت التي هي ظل الأمور الآتية أو المستقبلية أو العتيدة" (كولوسي ١: ١٦ – ١٧)، ولذلك يسأل الرسول: "لماذا كأنكم عائشون في العالم تُفرض عليكم فرائض"، يحصرها الرسول في عبادة زائلة تقوم على:

– "لا تمس" حتى لا تتنجس.

– "لا تذُق" لأن هناك أطعمة غير طاهرة.

– "لا تجس"، أي "لا تستعمل"، لأنك –بالاستعمال– تخسر قدرتك على الصلاة والعبادة (راجع نص كولوسي ١: ٢٠ – ٢٣).

ويصف الرسول هذه القواعد بقوله: "التي هي جميعها للفناء في الاستعمال حسب وصايا وتعاليم الناس، التي هي حكاية حكمة بعبادة نافلة (أي تقوم على ما ليس له قيمة)، وتواضع (العبيد) وقهر الجسد (فقدان الحرية)".

٤– لذلك احذروا الكَذَبة الذين يضعون الحوائل والعوائق بينكم وبين المسيح، وهي قيودُ تطهيرات الجسد أو الصوم أو أي شيء آخر، لأن والدة الإله لم تَصُم لكي يحلَّ ابنُ الله في أحشائها، ولم يكن صوم الآباء الرسل هو الذي جعل الروح القدس يحلُّ في يوم العنصرة... ليس ما نُقدِّمه لله هو سبب محبة الله ورحمته، وإلَّا نكون قد

وقعنا في جهل الوثنية، لأن الوثني يُرضي الآلهة بما يقدِّمه مِن قربانٍ ومالٍ، لأن قلب الوثني والصنم لا يتحرك إلَّا بتقدمة مادية، ولأن الوثني الغارق في الجهل يعلم أن الإله الحجر لا يتحرك إلَّا بما يُقدَّم له من تقدمات عينية.

وأشنع ما في الوثنية هي أنها تحاول دائمًا أن تُعلِّم الناس أن الآلهة مثل البشر؛ لا تصفح إلَّا بعد الانتقام، ولا ترضى إلَّا بعد التشفِّي، ولا ترحم إلَّا إذا قدَّم لها الوثني "رشوةً" أو هديةً أو ضحيةً، حتى يمكن لقلب الآلهة أن تتغير.

أمَّا نحن، فلم نتعلَّم أن العبادة الحسنة هي سببُ رضاء الله، بل هي الحُسنُ الذي يعودُ علينا. وما نُقدِّمه إنما يعودُ علينا بكل الفوائد الروحية. نحن لا نصوم لكي نستحق التناول من الأسرار. هذه وثنية صريحة. نحن نصوم لأننا نضع السماء قبل الأرض، ونأكل طعام الخلود حسب ربنا يسوع المسيح قبل طعام الأرض (وكلٌّ على قدر احتمال وطاقة جسده).

٥- أيها الأحباء لا تصدقوا الكَذَبَة الذين يتحدثون باسم "القوانين" الكنسية. لأن الربَّ لم يتجسد طبقًا لقانون، وإنما وُصِفَ تجسُّده بأنه التدبير أو خطة الله منذ الأزل. ولم يمت الربُّ على الصليب حسب قانون أو شريعة، بل حسب المحبة الأزلية. لذلك أصرخوا في وجوه أصحاب القوانين أن يقدموا لكم هذه القوانين من الكتب المقبولة في الكنيسة الأرثوذكسية.

وأخيرًا أيها الأحباء علينا أن نقاوم بمحبة، لأن الحق لا يحتاج إلى صُراخٍ، ولا إلى شِجارٍ أو عراك. لتكن شهادتنا صادقة، ومحبتنا -حتى للمعلمين الكَذَبَة- "بلا رياء" (رومية ١٢: ٩).

وهذه هي شهادتنا عن التحوّل العظيم الذي جاء به ربنا يسوع نضعها في شكل مبادئ تهدي الفكر، وليس في شكل وصايا وناموس.

٦- لقد جاء الرب بمحبته الفائقة للجنس البشري، جاء وتجسَّد، وبالتالي صار من الواجب علينا أن نُميّز بين الترتيب والآداب التي نُمارسها لكي يتغير الفكر والعواطف ونفهم، وبين الفرائض التي لا وجود لها؛ لأننا لسنا نحن الذين جئنا إلى الله بل الله هو الذي جاء إلينا.

كلُّ وصيةٍ أو تعليمٍ أو ممارسةٍ تضع عائقًا أو مانعًا من الصلاة أو التناول أو .. الخ. هي غريبةٌ تمامًا عن روح الإنجيل. لقد تجسَّد الربُّ لكي يحوِّل أصلنا فيه، ويجعله في شركة أبدية مع الآب. هذا مصدره وثباته ودوامه الأبدي هو في الله المتجسِّد، لأننا نقول إن "لاهوته لم يُفارق ناسوته لحظةً واحدةً ولا طرفةَ عين"، وبالتالي لا يُفارقُنا الله بسبب الكائن دائمًا أُقنومًا واحدًا؛ الابن المتجسد، وهو الرأس الذي منه تنمو كل أعضاء الجسد (كولوسي ٢: ١٩). والأعضاء لا تنمو بالممارسات بل بالحياة التي تأتي من الرأس.

نحن لا نحب الله لأننا نفِّكر فيه، وإنما نُحبُّه لأنه أعطانا ابنه وصار فكرُنا محصورًا في هبة العطاء.

تجسُّد الرب هو الذي يحرك الفكر بالشكر، واتحاد الابن بالجسد الإنساني هو الذي يجعلنا نُحبُّ أجسادنا، وتقديس الابن للجسد الإنساني حسب التعليم الذي استلمناه من القديس أثناسيوس (تجسد الكلمة فصل ١٧) هو الذي يعطي لأجسادنا التقديس، وليس الغسل بالماء.

نحن لا نتطهَّر بالماء إلَّا مرةً واحدةً في المعمودية المقدسة التي لا تُعاد ولا تبطُل حتى بالخطية، لأن الربَّ باغتسالٍ واحدٍ في المعمودية أبطل كل اغتسالات الناموس. ولاحظوا أيها الأحباء أن صلوات المعمودية في الكنيسة القبطية تُسمي المعموديةَ "الحميم الجديد"، أي الاغتسال الجديد، أو حسب التعليم الرسولي للقديس بولس: "غسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا" (تيطس ٣: ٥). وعن هذا قال الربُّ لبطرس: "الذي اغتسل ليس له حاجة إلَّا إلى غسل رجليه **بل هو طاهرٌ كله**، وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم، لأنه عرف مُسلِّمَه، لذلك قال لستم كلكم طاهرون" (يوحنا ١٣: ١٠ – ١١). لذلك، لاحظوا أن يهوذا تنجَّس داخليًا بما فكَّر فيه، وبما أحب من خيانةٍ، وليس بسببِ إفرازٍ خارجيٍّ، ولذلك يُعلِّق أبونا القديس يوحنا ذهبي الفم على كلمات الرب في العظة ٧٠ على إنجيل يوحنا ويقول:

> "ما معنى الذي اغتسل؟ وهذه ليست مثل "الذي صار طاهرًا". هل كانوا أطهارًا وهم لم ينالوا التحرر من خطاياهم ولا حُسبوا أهلًا للروح القدس، لأن الخطية كانت ما تزال تستَعبِد وتسود في صك الوصايا المكتوب، واللعنة لم تُرفع بعد، لأن الذبيحة لم تكن قد قُدِّمت. فكيف يقول إنهم طاهرون، وحتى لا تحسب أنهم قد تحرروا من خطاياهم، لأنه (الربُّ) يقول: "أنتم أنقياء بسبب الكلمة التي تكلمت بها معكم" (يوحنا ١٥: ٣)، أي أنه –حسب هذه الطهارة– قد أخذتم النور الذي يحرركم من أباطيل اليهودية. ويقول النبي أيضًا: "اغتسلوا. كونوا أطهارًا. انزعوا الشرور من أنفسكم من أمام عينيَّ. كُفُّوا عن شروركم" (أشعياء ١: ١٦ س)، وهكذا يغتسل الإنسان ويتطهر، لأن هؤلاء نزعوا خطاياهم من نفوسهم وساروا معه بعقلٍ نقيٍّ، ولذلك يقول حسب

كلمات النبي "الذي اغتسل هو طاهرٌ". وبهذه الكلمات لا يعني الاغتسال بالماء كما يمارسه اليهود، وإنما تطهير الضمير" (راجع مجلد ١٤: ص ٢٥٩).

وهكذا بعد أن قدَّم الربُّ التطهير الكامل "بعد ما صنع بنفسه (أُقنومه) تطهيرًا لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي" (عبرانيين ١: ٣)، ولم يكن يهوذا طاهر الضمير، بل خائنًا، والاغتسال بالماء لا يُفيد مَن هو نجسٌ بالعداوة والأحقاد.

٧- تجسَّد الربُّ ابن الله، وبذلك عَبَرَ إلينا وأزال كل العقبات. جاء هو بأُقنومِه واتَّحد بما لنا لكي يحوِّلنا إليه. وهكذا -فيه- كما قال أبونا القديس أثناسيوس الرسولي صار لنا الحياة والخلود بفضل التحوّل العظيم الذي تم في ناسوته. ونحن لم يكن لنا فضل ولا إرادة، ولا نستطيع أن نتدخل أو نساهم في هذا التحوّل، لأنه لأجلنا وليس بنا أي بواسطتنا. ولذلك أيها الأخوة الأحباء احذروا كل مَن يريد أن ينزع نعمة الرب لنا، ويضع بدلًا منها ممارساتٍ يدَّعي أنها تُقرِّبُنا إلى الله.

لقد اقترب الله منّا بكل ملء حياته، ونحن عندما نتقدم إليه فإنما لكي نأخذ من ملئه نعمةً فوق نعمة (يوحنا ١: ١٦)، لا لأننا نستطيع أن نقدِّم له شيئًا.

الثياب النظيفة وغسل الجسد هو سلوكٌ اجتماعيٌّ يساعد الضعفاء على الشعور بالراحة، أمَّا الاغتسال الحقيقي في نهر محبة الله، فهو مؤلمٌ جدًا، لأننا كلما اغتسلنا في محبة الله، وجدنا أننا خطاةٌ، ويساعدنا هذا على التواضع. لذلك، احذروا الشعور بالراحة الذي قد يُولِّد الاستحقاق الكاذب، واحرصوا على اقتناء التواضع الذي يُولَد من نعمة الله وبرؤية محبتنا ومقارنتها بمحبة الله.

لذلك السبب يقول القديس أثناسيوس عن تجسد الكلمة:

"يجب علينا أن نقول إن الكلمة وابن الله أخذ جسدًا وصار ابن البشر، ولما صار الوسيط بين الله والإنسان، صار يخدم (يقدِّم) ما يخص الله لنا، وما يخصنا نحن لله" (المقالة الرابعة ضد الأريوسيين: ٦).

فكيف نُقدِّم لله في المسيح الاغتسال بالماء، وهو الذي قدَّم لنا المعمودية؟ وكيف نضع الشريعة الموسوية كوسيطٍ بيننا وبين الآب الذي قدَّم لنا ابنه الوحيد؟ وما هي الأشياء التي تخصنا التي يُقدِّمُها ربنا يسوع المسيح لله الآب سوى الصلوات التي تُقدَّم باسمه وفيه، والتوبة التي تجعل السماء تفرح بخاطئ واحد يتوب (لوقا ١٥: ٧)، والمحبة التي ستبقى إلى الأبد؟

لقد تحوَّلنا فيه إلى خليقةٍ جديدةٍ، وهو الذي يمسك بنا، ولسنا نحن الذي نمسك به. هو يرفعنا ويجعلنا نرى أنه معنا. ولذلك لنقُل مع الرسول إننا نوقن أنه:

لا موت

لا حياة

لا ملائكة

لا رؤساء

لا قوات

لا أمور حاضرة

ولا أمور مستقبلة (وهذا يضم كل ما يخص الخليقة المادية والروحية).

لا علو (الفكر ونظرياته)

لا عمق (رياء وفطنة وخبث الناس بما فيها الهاوية والحكمة الشريرة).

ولا خليقة أخرى (كل ما يمكن أن نتصوره من كائنات).

كل ذلك يقول عنه الرسول إنه لا يقدر أن يفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا (رو ٨: ٣٨ – ٣٩).

٨- إن صعوبة الأيام التي نجتازها تحتاج منا إلى يقظةٍ، لأن القانون لا يضبط الحياة الكنسية، وإنما التمسُّك بالرأس ربنا يسوع المسيح.

الخوف لا يجعلنا نُحب الله، وإنما يجعلنا نُحب أنفسنا ونفضُّلها على الله.

الخوف يزرع فينا الأنانية، وطلبُ الربح يزيد فينا شهوة القنية والرغبة في الامتلاك.

السلوك حسب الناموس يولِّد الرياء والكذب، لأن الناموس لا يجعل الإنسان يتأمل محبة الله، بل يتأمل خطاياه ومكاسبه.

أرجوكم كونوا على يقظةٍ لكي يحفظ الرب يسوع حياتنا فيه "بغير عاصفٍ ولا قلقٍ ولا مَضرةٍ إلى الانقضاء".

كونوا في سلامٍ مع الرب.

د. جورج حبيب بباوي

+ + +